## الـمحاضرة الخامسة :

# مظاهر الحياة العلمية في الجزائر خلال العهد العثماني

### 1- إنتشار اللغة العربية:

من المعروف آن انتشار اللغة العربية في مناطق العالم الإسلامي ومنها المغرب الأسلامي (الجزائر) ، كان مرتبطا بدخول الإسلام إليها وانتشاره فيها ، وفي نفس الوقت أشارت الدراسات أنه منذ إدخال الحروف العربية بدأت عملية أسلمة إفريقيا

وقد لعب التجار والدعاة واستقرار الجاليات العربية البربرية دورا حاسما في انتشار الفقه العربية والبربرية دورا حاسما في انتشارا اللغة العربية وازداد عدد المسلمين الأفارقة ،واكتسبت اللغة العربية مسحة من التقديس عندهم . وقد ساعد على إقبال سكان حواضر غرب إفريقيا على اللغة العربية أنها لغة الدين الذي آمنوا به والقرآن الذي يرددون بعض آياته في عبادتهم، ثم الجد والنشاط الذي أبداه العرب في تعليم اللغة العربية للأفارقة وفتح الكتاتيب.

وقد ساعد وجود العرب والبربر في أغلبية مدن وقرى بلاد الجزائر على انتشار اللغة العربية نتيجة الزواج والمصاهرة ، فكان من عاداتهم أن يقوم رجال من العلماء في تلك المناطق بتعليم الناس القرآن العظيم وتفقيههم في الدين .

وعلى يد هؤلاء المعلمين الأوائل انتشرت علوم الدين ،وتقرب الناس إليهم للاستفادة منهم والأخذ عنهم ،سواء رغبة في فهم الدين ليؤهلوا للاندماج في هذا المجتمع الجديد أو طمعا في مكانة دنيوية ،وبهذا وجدت عوامل مشجعة لتعلم اللغة العربية وغدت اللغة العربية مع توسع الإسلام في كثير من مناطق الجزائر وحواضرها بالخصوص لغة التجار والعلم والثقافة والإدارة ولغة التخاطب بين القبائل المختلفة الألسن واللهجات ، وأصبح الحرف العربي يستعمل في كتابة اللغات المحلية .

ولو القينا نظرة على ما تزخر به المكتبات الخاصة والعامة في إفريقيا من كتب التراث الإسلامي ، لأخذتنا الدهشة من كثرة ما عرفته هذه المنطقة من أسماء العلماء والأدباء والشعراء والمؤرخين والكتاب الذين لم يعرفوا لغة للثقافة والعلم سوى العربية .

## 2- انتشار المذاهب الإسلامية :

### أ-المذهب المالكي:

ذكر ابن خلدون ان المذهب المالكي انتشر في بلاد المغرب والاندلس وارجع سبب ذلك إلى رحلات الحجاج الى بلاد الحجاز مكة المكرمة والمدينة المنورة، حيث يقول: وأما مالك رحمه الله تعالى فاختص بمذهبه اهل المغرب والاندلس وان كان يوجد في غيرهم الا انهم لم يقلدوا غيره الا في القليل، لما ان رحلتهم كانت غالبا إلى الحجاز وهي منتهى سفرهم والمدينة يومئذ دار العلم ومنها خرج الى العراق ولم يكن العراق في طريقهم، فاقتصروا على الاخذ من علماء المدينة وشيخهم يومئذ وإمامهم مالك وشيوخه من قبله وتلاميذه من بعده، لم يزل المذهب المالكي غضا عندهم، وكان للمعز بن باديس دور فعال في انتشار المذهب المالكي في الجزائر ما بين سنوات 407و453 للهجرة وفي استقرار المذهب في المغرب الاوسط وتونس وحمل اهل هذه المناطق عليه، وحسم النزاع بينه وبين المذهب الحنفي الذي كان منتشرا قبله والقضاء على ما بقي من اصول المذهب الشيعي المعروف عن الدولة العبيدية، وقد حاولت دولة الموحدين عندما سيطرت على بلاد المغرب اوائل القرن السادس وخاصه في عهد يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن اظهار مذهب الظاهرية الذي نشط اتباعه في تلك الفترة وكانوا يسمون بالحزمية نسبه لأحمد ابن حزم الظاهري مؤسس المذهب، ولقد اقدم يعقوب بن يوسف على حرق الكتب الفقهية للمذهب المالكي، وكان من جمله الكتب التي لحقها الحرق وصارت من الممنوعات مدونة الامام سحنون وكتاب الجامع لمسائل المدونة لابن يونس وكتاب النوادر لابن ابي زيد القيرواني وتهذيب المدونة للبرذاعي، وكتاب الواضحة لعبد الملك بن حبيب، غير ان هذه المحاولات باءت بالفشل واستمرت الغلبة للفقه المالكي على الشمال الافريقي طيلة اثنتي عشر قرنا ولا تزال الى يومنا هذا، رغم خضوع الجزائر للسلطة العثمانية منذ 1519إلى غاية 1830.

### ب-المذهب الإباضي :

رغم انتشار وسيادة المذهب المالكي في الجزائر بعد القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ، كان المذهب الإباضي موجودا في بعض المناطق التي يكثر فيها العرب و البربر ، وقد دخل إلى الجزائر في وقت مبكر مع طلائع المسلمين الأوائل ، وانتشر بعد ذلك ، وبعد سقوط الدولة الرستمية بدأ نفوذهم يتقلص ،وخلال القرن الخامس الهجري عم المذهب المالكي بلاد المغرب خاصة بعد انفصال بن زيري على الدولة الفاطمية بالقاهرة ، ثم قيام الدعوة المرابطية وتوسع المرابطين في غانا عم المذهب المالكي بالمغرب وأصبح تواجد الإباضية في مناطق محدودة جدا .

**ج- المذهب الحنفي** : كان هو المذهب الغالب على أهل بلاد المغرب عموما والجزائر خصوصا الآثار والسنن حتى ذهب ابن فروخ أبو محمد الفاسي ( 172 هـ - 788 م) إلى المشرق قصد طلب العلم فأتى بمذهب أبي حنيفة، وقد ذكر ابن فرحون في الديباج أن المذهب الحنفي ظهر ظهورا كثيراً بإفريقية إلى قريب من سنة 400هـ وذلك بعد تولي أسد بن فرات القضاء فيها، وقد كان المذهب الحنفي المذهب الرسمي للدولة العباسية فساهم القضاة ورجال الدولة فيانتشاره من خلال تنفيذ أحكام القضاء ومختلف التشريعات الفقهية وفق المذهب، وهذا ضمن استراتيجية الخلافة العباسية في خلق تبعية عقدية فعين هارون الرشيد الإمام أبو

يوسف الحنفي قاضي القضاة للدولة في حين تمكن الفقهاء الأحناف من تكييف فتاويهم الدينية مع الظروف المحيطة بالاعتماد على الرأي والقياس، وقد بقي المذهب الحنفي غالبا في بلاد المغرب حتى وصول الدولة العبيدية الشيعية الى بلاد المغرب ثم قيام المعز بن باديس بفرض المذهب المالكي كما أسلفنا.

**3- أهم العلوم السائدة خلال تلك الفترة :**

إن المطلع على ما جاء به المؤرخون سيكتشف أن التعليم في الجزائر في هذه الحقبة التاريخية ساده ركود في مناهجه المقررة؛ حيث اقتصر على أشياء بسيطة ومحددة، ويمكن تلخيص ذلك فيما يلي:

**أ. العلوم النقلية:** العلوم النقلية كما يعرفها ابن خلدون هي تلك التي تستند إلى:" الخبر عن الواضع الشرعي، وتشمل: التفسير، والقراءات، والحديث، وعلم الفقه، وعلم الفرائض، وعلم أصول الفقه وعلم الكلام وغيرها"، وقد اعتمد في تدريس هذه العلوم على التلقين، كما لم تكن هناك مناهج محددة تنظم كمية المعلومات التي يتلقاها المتعلم، ولم تكن فترة الدراسة محددة بمدة معينة أو سن معين، وإنما كانت مرتبطة بمدى تحقيق الطالب للكفاية العلمية . فإذا أراد الاستزادة التعمق أكثر في دراسته فعليه التوجه إلى الجامعات الكبرى: الزيتونة، القرويين، بلاد الحجاز، الشام أو بغداد، كما تضمنت إلى جانب العلوم النقلية التأثيرات الأندلسية والأوروبية حيث طوروا ميدان التعليم من قواعد اللغة والأدب والعلوم والموسيقى، أما من أراد تعلم فنون التجارة والطب فعليه التوجه إلى أوروبا حيث أشار شيمبر إلى جانب هذا هناك من سافر إلى فرنسا وإنجلترا.

**ب. العلوم العقلية:** هي تلك العلوم المرتبطة بأحكام العقل، فهي "طبيعية للإنسان من حيث وهو ذو فكر، تسمى العلوم الحكمي، وقد كانت المدرسة الجزائرية تفتقر لهذا النوع من العلوم (صليبا، 1982، ص 414)، "إذ يؤكد المؤرخون أن اللغات والعلوم العقلية والفنون لم تكن متاحة في الجزائر كسائر البقاع التي كانت تحت راية الدولة العثمانية، لكن في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر بدأ ظهور بعض مقررات المواد العلمية، قد ساعد على ذلك أن العثمانيين خلال هذا العهد رغبوا في توسيع شبكة التعليم بإنشاء المدارس، لكن ذلك لم يواكب التطور الحضاري الذي عرفته أوروبا، وعليه كان على من يرغب في دراسة العلوم العقلية السفر إلى حواضر أوروبا كالذهاب إلى ليفورنو بإيطاليا لدراسة الطب، وإلى بريطانيا أو فرنسا لاكتساب المعارف الأوروبية في مختلف الميادين.

**4- المدارس العلمية :**

المدارس العلمية مؤسسات ثقافية تتمثل وظيفتها بصورة اساسية في تعليم مختلف العلوم الدينية وغير الدينية، وقد عرفها ابو راس الناصري بقوله <.....المدرسة المتعارف عندنا الان وهي التي تبنى لدراسة العلم اي تعليمه وتعلمه .....> وحقيقة الامر ان الجزائر خلال العهد العثماني عرفت انتشار واسع للمدارس، ويذكر البعض ان مدينة الجزائر كانت تتوفر على ثلاث مدارس للمذهب المالكي، وكان من أهداف المدرسة في ربوع الوطن الجزائري تحفيض القرآن الكريم إلى جانب تعليم مبادئ القراءة والكتابة وبعض العلوم الأخرى كالحديث والنحو واللغة والفقه والتوحيد واستكمال هذه الدراسات بعلم الحساب وقراءة المؤلفات الطبية.

ومن بين المدارس المشهورة في الجزائر العثمانية نذكر:

- ✓ **مدرسة مازونة:** اشتهرت مدينة ما زونة بمدرستها الدينية، بلغت ما زونة شهرتها الآفاق في العلوم الشرعية منها الفقهية وعلم الحديث وعلم الكلام وقد عرفت بكثرة مجالسها ونجابة طلبتها وقريحة شيوخها، حتى وصفت بكونها بلد العلم والفقه، واشتهر شيوخها بالتخصص فبعضهم تخصص في شرح مختصر خليل وشرح الخرشي وشرح الزرقاني في الفقه المالكي، والبعض في الأحكام والقضاء والفتوى، والبعض الاخر في الفرائض واخرون في رواية الحديث الشريف.
- ✓ **مدرسة القيطنة**: تأسست هذه المدرسة بالقرب من مدينة بو حنيفية سنة 1787م على يد مصطفى بن المختار بعد عودته من بغداد عاصمة العلم آنذاك، وتعتبر هذه المدرسة من المدارس التعليمية الهامة في الجزائر، حيث جمعت مدرسة القيطنة بين جميع مراحل التعليم من أدنى مرحلة إلى أعلاها، ومن العلماء الذين درسوا بها أبي راس الناصري.
- ✓ **مدرسة المحمدية**: وهي من أهم المدارس التي أسسها محمد باي، والتي كان لها صدى واسع في العالم العربي والإسلامي عموما والناحية الغربية على وجه الخصوص، والتي تعتبر أكبر معهد علمي يضم أساتذة أكفاء، وهي التي أشار اليها أبو راس الناصري بقوله <...المدرسة التي كاد العلم أن ينفجر من جوانبها .... >.

**5- الزوايا:**

الزاوية هي مؤسسة دينية إسلامية ذات طابع اجتماعي تتمثل في مجمعات من البيوت والمنازل مختلفة الأحجام والأشكال، تظم بيوت للصلاة وغرف لتحفيض القرآن احتلت الصدارة بين مراكز الثقافة والتعليم خاصة بالأرياف، حيث مثلت المسجد والمدرسة في آن واحد، وهي تقوم بتعليم القرآن الكريم اضافة للفقه والعقائد وقواعد النحو والصرف والبلاغة والحديث، ويقوم بتأسيس هذه الزوايا في الغالب رجال الدين المتصوفة الذين يرون أن بناءها يمثل عملا خيريا لنشر الثقافة الإسلامية والمحافظة عليها.

تعتبر الزوايا من أهم مميزات العصر العثماني بالجزائر، فكانت كل مدينة كبيرة أو صغيرة إلا ولها زاوية، وكان من بين أهدافها ومقاصدها تعليم وتثقيف الطبقة العامة المعوزة من أبناء المجتمع المتعطش والمحتاج الى ينابيع العلم والمعرفة، وقد أشادت بعض الدراسات التاريخية بالعدد الهائل للزوايا في الجزائر العثمانية، حيث يذكر المؤرخون المهتمون بهذا الشأن بأن زوايا بلاد القبائل كان عددها لا يقل عن أربعين زاوية في طليعتها زوايا سيدي عبد الرحمان اليلولي وسيدي محمد بوقبرين وسيدي علي بن الشريف وسيدي احمد بن إدريس وغيرها، هذا بالإضافة الى زوايا الصحراء (بوسعادة والهامل وسيدي خالد وبسكرة وسيدي عقبة وطولقة وعين ماضي وزوايا ناحية وهران.)

والواقع ان الزوايا في الجزائر كانت لها مساهمة فعالة ودور ريادي في بناء الشخصية الوطنية الجزائرية وإبراز ثوابتها ومقدساتها، وفي هذا الشأن تقر بعض الدراسات على أن الزاوية هي التي حفظت لهذه الأمة المسلمة قرآنها ولغتها ودينها وأخلاقها الإسلامية أمام المشاريع الإستدمارية الهادفة إلى طمس مقومات الهوية الوطنية، هذا إلى جانب دورها الجهادي إذ ما من ثورة أو انتفاضة أو مقاومة خلال القرن التاسع عشر الميلادي إلا وهو مقرون باسم شيخ زاوية.

ويشهد التاريخ النزيه أن شيوخ الزوايا وابناءهم ومريديهم كانوا أسرع من غيرهم مبادرة لجهاد العدو الاسباني والفرنسي فيما بعد، والجدير بالذكر ان الزوايا في الجزائر قد نجحت في هذه المرحلة من التنظير للبعد الوطني وقيمه في الأوساط الجماهيرية، ومن جهة اخرى تمكنت من تربية الناشئة تربية روحية إستندت للتصوف الإسلامي ومقاصده النبيلة.

**6- التراث الجزائري المخطوط والمطبوع :**

بجانب الثقافة الشعبية السائدة سمحت المدارس والزوايا بالجزائر العثمانية من تخريج مجموعة متميزة من الكتاب والفقهاء والمؤرخين، تولوا الخطب الدينية والوظائف التعليمية بالمدن جلهم على المذهب المالكي، وبعضهم بالمدن الكبرى من المذهب الحنفي، وقد كان لبعضهم مساهمات ايجابية في المحافظة على التراث الإسلامي ،وفي إغناء الثقافة العربية الإسلامية بما جمعوه او صنفوه من مختلف المعارف الفقهية واللغوية والتاريخية.

وبما أن مجال البحث في التراث التاريخي للجزائر سيقتصر حديثنا عن المؤرخين الجزائريين ومؤلفاتهم سواء المخطوطة أو التي حققت وطبعت، والتي تعد إرثا حضاريا للجزائر اليوم وجب الحفاض عليه لاستثماره بما يخدم الأمة ويعزز مكانتها وأصالتها ولعل أبرز هؤلاء نذكر:

أبو العباس أحمد المقري صاحب كتاب نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب .

عبد الرحمان الأخضري في كتابه نظم الجوهر المكنون.

إبن مريم المديوني في كتابه البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان

عبد الكريم إبن الفكون : منشور الهداية في كشف حال من إدعى العلم والولاية.

محمد بن ميمون الجزائري: التحفة المرضية في أخبار الدولة البكداشية ببلاد الجزائر المحمية.

عبد الرزاق إبن حمادوش مصنف رحلة لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال

حمدان بن عثمان خوجة، المرآة

ابن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في إبتسام الثغر الوهراني.

عبد القادر المشرفي، بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر

محمد بن رقية التلمساني، الزهرة النيرة في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة

محمد بن أبي راس الناصري، عرف بإنتاجه الغزير الذي قدر بخمسين تصنيفا أهمها درء الشقاوة في حروب الترك مع درقاوة، وعجائب الأسفار ولطائف الأخبار

أحمد بن هطال التلمساني في تصنيفه رحلة محمد الكبير باي الغرب نحو الجنوب الصحراوي الجزائري

مسلم بن عبد القادر الوهراني، خاتمة أنيس الغريب والمسافر

محمد بن يوسف الزياني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران

هذه بعض المصنفات التاريخية التي ألفها مؤرخون جزائريون خلال العهد العثماني فكانت بمثابة المادة الخام لدراسة تاريخ الجزائر، ومصدرا مهما يشهد على عمق الهوية الجزائرية في أحضان التاريخ، وسنحاول بتوفيق الله تعالى ان ندرس هذه المخطوطات التاريخية مع إبراز القيمة العلمية والحضارية لها سواء كانت مخطوطة او مطبوعة، هذا بالإضافة إلى محاولة وضع دراسات اكاديمية لمؤرخي الجزائر في العهد العثماني والوقوف على مدى مساهمتهم في بناء الصرح الحضاري للجزائر العثمانية.

في هذا الحقل التاريخي ندرك اهمية وضع دراسة موسوعية للشخصيات السياسية للجزائر العثمانية وحكامها وذلك ما اصبح نوليه اهتماما بالغا في هذه الفترة، وسنعمل على تحقيقه في المستقبل القريب بحول الله وقوته، وصفوة القول تبقى هاته المصنفات العلمية والتاريخية تشكل الحلقة الأبرز والعمود الفقري للتراث التاريخي للجزائر العثمانية.